

من شأيا التاريخ والأدب الاجتماعى :

النماذج الأساسية للأسرة الأبوية

للدكتور محمد غلاب أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

إذا تصفحنا أسفار التاريخ فطالعنا فيها ما حاكته يد البشرية من سجلات الزمن، وأنعمنا فيها النظر قصد الموازنة والتحليل ، ألفينا الأسرة قد ارتدت في العصور المختلفة ثيابا متباينة الألوان، وظهرت في صور متفاوتة الهياكل، متعارضة الكيفيات . ومهما حاولنا الاقتضاب، ورجحنا الإيجاز على الإسهاب ، وحصرنا التعلم في أضيق ما نستطيعه من الدوائر ، فأننا لا نجد بدا من أن نلاحظ طائفتين أو كاهنتين أن الأسرة قد اتخذت خلال الأزمان والأجيال طرقا شتى ، وسلكت وسائل متشعبة ينبغي أن نطوف بها طوفة عاجلة قبل أن نعرض لآثارها البارزة في الفرد والمجتمع ، وإليك تلك الطوفة :

في مصر :

كانت الأسرة في بلاد الفراعنة قوية الدعائم ، متينة البنيان وكان فيها السultan لربها ، ولكنه كان سلطانا معتدلا يمتاز بالوداعة والموادة ولين الجانب ، فلم تكن المرأة في الأسرة المصرية مستعبدة، أو مضطهدة، أو مجردة من حقوقها الطبيعية والاجتماعية، بل كانت على العكس تستمتع بأكل أنواع الحرية، فتخرج من المنزل متى شاءت وكيف شاءت، وتساهم في مجد زوجها وشرقه ، وتذوق حلاوة المنعة بالقابه ، وتباهى بشهرته حيث كانت تدعى في كل مكان بلقب وظيفته وترتفع إلى مكانته الاجتماعية .

وإذا كان الأدباء في كل زمان ومكان يصورون في قصصهم ورواياتهم ما يقع حولهم من الأحداث، وكان الأدب لهذا السبب صرآة الحياتين : الاجتماعية والخلفية في كل أمة، فأننا نرى لزما علينا أن نقف حنينة أمام القصص الشعبية المصرية الأثرية التي جمعها المستمصر الكبير الأستاذ ماسيرو ، وترجمها إلى الفرنسية، ونأمل فيها مليا ، نرى كيف كانت المرأة المصرية محبوبة لدى أولادها بسياج من الجلال، منظورا إليها من زوجها بعين الاحترام ، إكبارا لعقليتها وتقديرا لمواهبها ، مشهورا لها من الجميع بالقدرة على حل المشكلات العويصة التي تستعقد أمام زوجها ، وفوق ذلك فأننا نراها في إثبات التاريخ وبين صفحات الأدب الشعبي القديم، لا تنكاد تفارق زوجها في الاستمتاع بمجده كما لا تفارقه في احتمال أشق محنه وأقصى آلامه . ففى الأولى يحدثننا هيرودوت كيف أن الملك " سيزوستريس " قد سافر في حملة ووكل أمر المملكة إلى أخيه ، ولما عاد مع زوجه التي لم تكن تفارقه البتة سقطا في الفخ الذي كان ذلك الأخ الغادر قد نصبه لها وكادت النار تلتهمهما وجميع أولادهما . وهنا هرع

”ميرزوستريس“ إلى حكمة زوجه فسألها النصيحة لخروج من هذا المأزق . ولما كانت هذه الزوجة حاضرة البديهة ، حجة الإخلاص ، قوية الإرادة ، فقد بادرت في الحال بتضحية ولدين من أولادها بأن أرقدتهم في النار ليكونا معبرا يمر عليهما الباقيون إلى موضع الحاجة . وفي الثانية — وهي صفحات الأدب — يثبتنا أحد الرواة أن أميرا كان بعض العرافين قد أنذره بأنه سيهوى بين برائن عدد من الكوارث والنكبات ، فأقضى بسرده إلى زوجه الحكيمه القوية العزيمة ، فصحمت على أن تعالج الأقدار حتى تدفعها عن زوجها ، وقد نفذت تصميمها فتجحت في إنقاذه من بين مخالب الأخطار .

وإن كان كل ذلك من الأساطير التي لا وجود لها في عالم الحقائق ، فإن الذي لا ريب فيه هو ذلك الإيمان الراجح الذي كان يلا قلب الأدباء بقوة المرأة وحكمتها ، وفذاك الإجلال الذي كانوا يشاهدونها محوطة به في كل مكان . وإذا أغضينا عن القصص الأسطورية ونظرنا في الحكم الخلقية والاجتماعية التي تعتبر أساسا تربوية الأمة أليناها مكتظة باحترام المرأة ووضعها في الصف الأول إلى جانب زوجها إن لم تكن متقدمة عليه أحيانا . ومن شواهد ذلك ما جاء في حكم الكاتب ”أني“ التي اقتطف منها هذه الشذرات : ”... إن أمك هي التي حملتك وقاست في ذلك احتمال الآلام ... ونحى التي أدخلتك المدرسة ، وفي أثناء دراستك كانت تدأب على زيارتك في كل يوم عند أستاذك حاملة لك الطعام والشراب من المنزل . ضع دائما نصب عينيك ألم الوضع الذي احتلته يوم ولادتك ، ولا تنس كل المساعب التي تجشمتها لسلامتك ، ولا تعمل ما يجعلها تشكو منك خشية أن ترفع يديها نحو الإله ضدك فيستعج شكايها“ .

عند العبرانيين :

غير أننا إذا غادرنا وادي النيل وما كانت الأسرة فيه مستمتعة به من احترام متبادل وتقدير متكافئ ، واتجهنا إلى غيره من البلاد القديمة فنبينا مثلا الأستاذ أرست رينان (١) إلى مقربى إسرائيل الأولين عند ما كانوا قبائل رحالة ، ووقعنا بتلك الأصناف برجة نتأمل في حالة الأسرة هناك ألفياها تكاد تتلشى في رئيسها الأعلى وسيدها المطاع الذي لا يتأزع ساطانه ولا يسأل عما يفعل ، ولا يجرؤ أحد من أفرادها على أن يرفع رأسه أمام جبروته . ولم يكن هذا السيد الطاغية هورب الأسرة الفرعية الصغيرة ، وإنما كان ذلك الشيخ المسن هو رمز الربوبية والسيطان . ولهذا كانت الحكمة التي تقضى بين الجميع مؤنفة من أولئك الشيوخ الذين كان بأيديهم الأمر والنهي . وكان لكل واحد من هؤلاء الأرباب

(١) أرست رينان : علم واسع الاطلاع ومؤرخ دقيق التحقيق ، ولد في بريتايا الفرنسية في سنة ١٨٢٣ ومعه دفعه عراجه بالكثافة عن بني إسرائيل إلى تعلم اللغة العبرية ، ويعتبر من كبار الشخصيين في تاريخ الشعب العبراني وقد توفي في سنة ١٨٩٢

الحق في تزوج امرأة أو امرأتين من طبقة الأشراف ، وله الحق كذلك في أن يتسرى بهن شاء من الرقيقات سواء كن ملكا له أو لإحدى زوجيه ، وكان الحق في وراثة الرياسة وما يعقبها من امتيازات ينتقل إلى أكبر أولاده الذكور ، على شرط أن تكون أمه من طبقات الأشراف ، أما أبناء المزارى فلم يكن لهم الحق في وراثة هذه الامتيازات ولا في الاستمتاع بكل حقوق أبناء بنات الأشراف وإن كانوا ينسبون إلى الأسرة ولهم فيها بعض الحقوق . وبالإجمال يمكننا أن نقول : إن دور المرأة في الأسرة الاسرائيلية القديمة يكاد يكون أقرب إلى العدم منه إلى الوجود ولم يكن لها في تلك الأصنواع اعتبار ذو شأن .

عند الهيلين :

على أن تركز سلطان الأسرة أو انحصار امتيازاتها في ربها الأوحده لم يكن في تلك العصور بدعة انفرد بها بنو اسرائيل ، وإنما نحن نأمله بارزا في غير ذلك الشعب من الشعوب الأثرية ، فإذا تركنا الشرق وولينا وجوهنا شطر الأمة الهيلينية في عصر أطلالها الأسطوريين ، وجدنا للأسيرة فيها ذلك المظهر الأبوي الذي تركاه عند العبران ، ورأينا أعضائها الكثيري العدد يقيمون تحت سقف واحد ، ويخضعون لسلطان واحد ، وهو سلطان ذلك الرئيس الأعلى وهاك ما يصور به هو ميروس قصر برياموس ملك تروادة إذ يقول :

” يوجد في القصر نحسون جناحا متجاورة قد بنيت بالأحجار الملساء ، وفيها يقيم أبناء برياموس إلى جانب زوجاتهم . وتجاه هذه الأجنحة أى في الجانب المخصص للنساء يرتفع اثنا عشر جناحا بنيت كذلك بالأحجار الملساء حيث يقيم أصهار الملك مع زوجاتهم الطاهرات “ .

ويبغى أن نشير هنا إلى أن هو ميروس عند ما صور قصر ملك تروادة لم يكن يزيد على أنه يستعد هذا التصور مما يحيط به من مظاهر إغريقية بحتة ، دون أن يتنبه إلى الفرق بين الإغريق والتراديين ، فعنده كان الشعبان من عنصر واحد ، وكانا يتكلمان لغة واحدة ، ويدنيان بعقيدة واحدة ، ويخضعان لقانون واحد .

كان أفراد الأسرة الإغريقية إذا يقيمون مع رئيسهم ويذعنون لأوامره مهما بلغت من العسف والطغيان أقصى حدودها . وإذا توفي انتقل هذا السلطان بقضه وقضيضه إلى أرشد أبنائه . وقد كان هذا الطغيان يعظم ويقسو حتى يتناول حق الموت والحياة ، فيقتل الرئيس من أفسراد الأبرمة من يشاء ولو كانوا من الأبرياء الذين لم يقرنوا جنسية ولا إثما . ونحن إذا استشهدنا على صحة ما نقول بطائفة من الأساطير الإغريقية فإنما نفعل ذلك لسببين : أولهما أن التاريخ الصحيح يؤيد أكثر ما في تلك الأساطير من وقائع وأحداث تأييدا قاطعا . وثانيهما أن الباحثين المحدثين قد فرغوا من تحقيق أن الأساطير ليس فيها

ما يخالف الحقيقة سوى مظاهرها الشكلية التي صيغت فيها. أما أعماقها ومغازيها ومراميتها والصور الاجتماعية والخلقية التي رسمت فيها ، فهي أجزاء من الحقيقة لا تقبل التجزئة ، وقد انتهى أولئك الباحثون أيضاً من تقرير أن نبذ الأساطير يحذفها واعتبار كل ما ورد فيها خرافاً ضرب من البطحية التي لا يرضى عنها العلم الدقيق .

لذا نحن نستشهد بتلك الأساطير على الحالة الاجتماعية الإغريقية مطمئنين إلى خطئنا كل الاطمئنان .

تحدثنا أسطورة أن "لايوس" ملك ثيبا عند ما يبنه العراف بأن ابنه "أوديسوس" سيكون يوماً شؤماً عليه يصمم على قتله ، وفي الحال يسلمه إلى من يتولى تنفيذ ذلك التصميم . وتنبأنا أسطورة أخرى بأن "أجاممنون" حينما يعلم من الكاهن أن الرياح لن تهب إلا إذا نحر ابنه "إفيجينيا" فإنه لا يتردد في أن يضحي بها ويقدمها قرباناً للإلهة التارث .

على أننا لو غضمنا الطرف عن الأساطير والتجأنا إلى التاريخ لألفينا أن رئيس الأسرة الإغريقية كان — قبل تسريع سولون — له الحق في بيع بناته إذا كان في حاجة إلى المال . ويروى لنا هذا التاريخ أيضاً أن دراكون — وهو أقسى مشرعى أثينا وأبعدهم عن الرحمة — لم يضع في قانونه مادة لمعاقبة قاتل والده ، لأن التقاليد كانت تقضى بأن يوكل عتاب هذا القاتل إلى رئيس الأسرة . ولا جرم أن هذا هو أقصى ما تصل إليه السلطة من حرية وطفان .

أما المرأة فقد كانت الطاعة أقدس واجباتها التي لا يباح لها الخروج عليها ، وإذا مات زوجها أو غاب انتقلت السلطة إلى أرشد أولاده ، فوجب عليها أن تكون رهن إشارته غير ناظرة إلى السن أو إلى البتة . ومن أمثلة ذلك إذعان "بينيلوبيا" زوج أوديسوس لابنها "تيلياكوس" أثناء انقطاع أخبار زوجها ، وكانت قد أرادت أن تفرض لشخصيتها وجوداً ، فتشارك ابنها في السلطة فأجابها في حزم وقوة بأس قائلاً ، "إرجعي إلى جناحك ، واشتغلي بأعمالك كالغزل والنسيج وإصدار الأوامر إلى خادمالك بأن ينهين منهن ، فإما الكلام ، فهو من اختصاص الرجال ، وبالأحرى هو من اختصاصي أنا الذي أمر وأنهى في هذه الدار"

لاريب أن نظاماً هذا شأنه يجرّد الفرد — إذا ابتعد عن الأسرة — من أهم حقوقه الشخصية ، إذ أن أهميته الاجتماعية بل إن أمنه واطمئنانه على حياته واستمتاعه بماله وقوته ، كل ذلك يأتي إليه من لدن تلك الهيئة المقدسة المسماة بالأسرة . وكما أن الأسرة هي مصدر الغم هي كذلك تشارك في الفرم ، إذ لا يكاد أي فرد من أفرادها يقترب جريرة أو إثمًا أو ينجدر إلى مخزية من المخزيات حتى تهوى كلها تحت المسؤولية وتحتمل التيجين المسادية والأدبية لهذا العمل .

أما الثروة العقارية للأسرة فلم يكن انتقالها إلى الأفراد مباحا، وإنما كانت ملكا عاما لحيثها تبقى ببقائها وتنتقل بالوراثة دون أن تتجزأ أو تتعرض للتصرفات التي تقتضى خروجها من يد الأسرة . وكما كانت القسمة والتجزئة والبيع أمورا غير مباحة ، وكذلك كانت الوصية والهبة العقاريان غير مألوفين ، بل ولا معروفين ، وقصارى القول : لم يكن رب الأسرة مالك الثروة إلا لأنه ممثل الأسرة ، وبعبارة أدق : كان حارسا عليها أكثر من كونه مالكا لإيادها ، ولهذا كان لزاما عليه أن يعتبرها وديعة عنده يردها قبل موته كما تسلمها يوم توليه زعامة الأسرة . وبصور لنا أفلاطون هذه الحالة إذ يقول في هذا الشأن ، ” أنا لا أنظر إليكم ولا إلى نراتكم على أنكم ملك لأنفسكم ، وإنما أنظر إليكم على أنكم ملك للأسرة كلها ، وبعبارة أوضح : ملك لأجدادكم وأبنائكم وأحفادكم “ .

غير أن هذه الأسرة المترامية الأطراف التي شاهدها صورته عند هوميروس لم تظل كذلك طوال العصور الأثرية الإغريقية ، وإنما أخذت بعد العصر الحامسي تتجزأ إلى أسر أقل اتساعا ، فتفصل منها أفرع غير أساسية فيها ، كأن تنبع البنات أزواجهن إلى حيث تقيم أسرهم بعد أن كن يثوين مع أولئك الأزواج في منزل والدهن .

عند الرومان :

على نفس هذه الصورة الأخيرة التي تركتها الأسرة عليها عند الإغريق نلنى الأسرة الرومانية تقريبا ، إذ نجد أنها قد تفرعت قليلا بحيث أصبح الذين يقيدهون مع رئيسها هم : زوجها وأولاده إلى وفاته ، وبناته إلى يوم زواجهن ، وأعوان الأسرة وحلفاؤها من الطبقة الوسطى وعبيدها . ولكن الأسرة الرومانية الحقيقية كانت تتميز عن هذا الخليط الواسع المالحق بها والذي كان يشوى معها تحت سقف واحد بميزة أساسية ، وهى اتصال أفرادها عن طريق الدم الأبوى فحسب ، بحيث كانت القرابة النسائية من المهانة إلى حد تقديم الحلف عليها في أكثر الحقوق . وقد نشأ ذلك من أن الوالد كان كل شيء ، وتركزت فيه جميع السلطات فكان له الحق في تسريح زوجته والاعتراف ببنوة أولاده أو بحجودها ، وفي تزويج أبنائه وبناته ، وفي تبني من شاء والحاقه بالأسرة ، وفي تعيين وصي على زوجته وأولاده ، وكان هو وحده المالك الشرعى لثروة الأسرة بحيث كانت الزوج والأولاد لا يملكون شيئا خاصا ، بل إن المبال التقليدى الذي تملكه السيدة بزواجها كان ينتقل بطريقة آلية إلى زوجها .

الدين الأثرى في إغريقيا وروما :

إذا كنا قد رأينا أن سلطان رئيس الأسرة في إغريقيا وروما كان قويا إلى هذا الحد ، فإن سبب ذلك راجع إلى أن مصدر هذا السلطان هو الدين ، إذ أن ذلك الرئيس كان قبل كل شيء كاهن الأسرة والمنترف الأعلى على جميع الطقوس الدينية فيها . ولما كان الدين

في تلك الأصناف إذ ذاك أسريا محضا أى أنه لم يكن يقول لمعتقه — وهو يشير إلى إنسان آخر — هذا هو أخوك ، كلا ، وإنما كان يقول له : هذا أجنبي عنك يدين بغير دينك ولا يستطيع أن يساهم في عبادتك المنزلية ولا أن يقترب من مقبرة أسرته ، وبالإجمال : له آلهة غير آلهتك ، ولهذا فإن آلهتك يبدونه ويرفضون عبادته وينظرون إليه على أنه عدو لهم ، فيجب أن يكون عدوا لك أنت أيضا .

لسيادة هذه العالم بينهم لم يكن أحد يدعو بالخير لغير نفسه وعشيرته ، وبالتالى هي أنت الفرد واجباته نحو بني الإنسان ، ولكنها في مقابل ذلك قد صيرت واجب الأسرة قوى الدعائم ، ثابت القوائم . إذ هي التي منحت الرئيس كل هذه السلطات التي كان لها الفضل الجوهري في الاحتفاظ بالأسرة نقية من الشوائب ، بعيدة عن الدنيا والمخجلات . ومما يجدر بالذكر هنا الإشارة إلى أن الدين هو الدافع الوحيد الذي حمل الأسرة الرومانية على أن تسمح لأعوانها وحلفائها من الطبقة الوسطى بالاتحاق بها والاجتماع معها حول النار المقدسة ، بل بتقديمها إليهم على ذوى القرابة النسائية . وكذلك الدين هو السبب في وضع الابن المتبنى في منزلة الابن الحقيقي ، بل قد غالى الرومان في هذا إلى حد أن منحوا الولد المتبنى الحق في وراثة العرش .

عند الجيرمان :

على عكس ما رأينا في إغريقيا وروما نشاهد الأسرة في الشعوب الجيرمانية المعروفة في التاريخ باسم برابرة الشمال والتي غزت في القرون الأولى للميلاد المسيحي الغرب المتعدين ولا سيما الأباطورية الرومانية ، فنحن نلقى نظام الأسرة في تلك الشعوب أكثر قيا ، وسلطان الأب أعظم اعتدالا ، إذ نجد القاعدة العامة هناك هي أن الثروة مشتركة بين الزوجين ، وأن القرابة الأموية معتبرة فيها إلى حد الاعتراف بسلسلتها كالسلسلة الأبوية سواء بسواء في الحقوق والواجبات ، وليس هذا فحسب بل أن كل فرد من أفراد الأسرة كان يستطيع امتلاك ثروة عقارية خاصة يتصرف فيها كل التصرفات الشرعية . ولقد كانت الأسرة تتألف إذ ذاك من الزوجين وأولادهما وأحفادهما الذكور ومن لم يتزوج من الإماء .

هذا ، ويرى علماء الاجتماع ولا سيما دوركيم أن الأسرة الزوجية الأوروبية العصرية تقترب من الأسرة الجيرمانية أكثر مما تقترب من الأسرة الرومانية ، وهي لا تكاد تختلف عنها في الجوهر إلا من حيث ضيقها وانكماش حجمها .

الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية